محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة
ابتسام مرهون الصفار

اغراض شعرية قديمة ومتطورة (الحكمة)

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

٥ ـ الحكمة :

الحكمة من المعاني الشعرية التي كانت معروفة في شعر ماقبل الاسلام ، فقد كان الشاعر الجاهلي يتأمل حياته وواقعه ويتفحصَ حال قبيلته ووضع الانسان فيها ويتأرجح رأيه ونظرته الى الحياة فهناك من رآها فانية ، وتأمل الحروب فيها فزادت نفسه رغبة في الحياة وتحدي ظروف الموت القاهرة فلجأ الى الخمرة والقيان مفلسفا هذا بنظرته الى الحياة التي لادوام فيها ولاخلود لانسان سعدت حياته فيها او شقيت وهكذا وجدنا طرفة بن العبد(٥٩٩) ينقل لنا في اشعاره مسوغاته التيُ يقنع بها نفسه في سبب انغماره باللذات بينما وجدنا شاعرا اخر كزهير بن ابي سلمى ينظر الى الامور نظرة اخرى فالمنايا تخبط خبط عشواء لايفلت منها احد ، والحروب تفني وتبيد ، والمستقبل المجهول مصير كل انسان توافيه منيته اخر المطاف فما عليه الا ان يعمل مايخلد ذكره بين الناس . تجد كل هذه الافكار والنظرات في معلقته التي امتدح بها هرما بن سنان ولم تعد فيها نظرته الى الحياة نابعة من حكمته وتجاربه فحسب بل نجح في ابرازها لتكون حكمة الامة نتيجة التجارب الطويلة التي تشهدها كل يوم . اما الموت فقد حير البشرية امره فنرى الشاعر قبل الاسلام يعزى نفسه بتأملات طويلة في عالم الاحياء فيطوف في عوالم الحيوان الذي يعرفه في بيئته حمار الوحش والظباء والكلاب ويتأمل حياتها المنعزلة البعيدة عن الناس وكيف يفاجؤها الصياد فيشتت شملها وجمعها(٦٠٠) كما حاول بعضهم اللجوء الى التعاويذ والتمائم كل ذلك يصور حيرة الانسان في ذلك العصر ازاء ظاهرة الموت الابدية فيقف متأملاً ومفسرا وفق نظرته الخاصة الى الامور ولم تكن الحكمة غرضا قائما بذاته في الشعر العربي وانما ترد في ثنايا الاغراض الشعرية المعروفة قبل الاسلام وعبر المعاني الشعرية المختلفة التي يعبر عنها الشاعر مدحا او غزلا فخرا او هجاء ، وماذلك الا لكونها ممثلة لخلاصة تجارب الشاعر او نظرته الى الحياة ازاء اي امر من امورها وازاء اي موقف من مواقفها . من هنا تداخلت الحكمة ضمن الاغراض الشعرية الاخرى وقد وجدنا من المؤلفين القدماء من جعلها ضمن باب من ابواب الشعر كما وجدنا من جعلها مفردة بكونها معنى او غرضا قائما بذاته فابو تمام جعل الحكمة ضمن

---

(٥٩٩) انظر معلقته في شرح القصائد لابن الانباري ١٩٨ فما بعدها .

(٦٠٠) نفسه ص ٢٣٧ .

باب الادب فنجد معاني الحكمة متفرقة في اشعار الشعراء في هذا الباب (٦٠١) بينما عد عبد الكريم النهشلي شيخ ابن رشيق عد الحكمة من اصناف الشعر حين قال : (اصناف الشعر اربعة المديح والهجاء والحكمة واللهو .. ويكون من الحكمة الامثال والتزهيد والمواعظ) (٦٠٢).

وبغض النظر عن المؤشرات العامة التي قيلت بشأن وجود الحكمة في عصر ماقبل الاسلام تبقى الحكمة وثيقة الصلة بالحياة الانسانية عامة والعربية خاصة فنظرة العربي الى الامور لابد ان تحكمها تجاربه وافكاره وبيئته وماينتج عن هذه النظرة من تأملات وافكار يسميان حكمة . فليس غريبا بعد هذا ان نقول باستمرار معاني الحكمة في العصر الاسلامي خاصة اذا ماتذكرنا مااثاره الاسلام من دعوة الى التفكير والتأمل في كثرة التساؤلات التي اثارتها الايات الكريمة في نفس العربي المسلم عن اسرار خلق الله وعن حكمته في خلق السموات والارض يضاف الى هذا دعوة الانسان الى اخذ العبرة والموعظة من تجارب الاخرين في ايات كثيرة تحدثت عن الاقوام والامم البائدة ومااورسل اليها من رسالات سماوية .

لقد صارت الحكمة في عصر صدر الاسلام ضالة المؤمن حيث ماوجدها فهو احق بها (٦٠٣) وماذلك الا لكون الحكمة نظرة صادقة الى الحياة مستمدة من التجربة الانسانية فمادامت الحكمة موافقة للحق فهي ضالة المؤمن حيثما وجدها . وبذا يدرج الحديث الشريف «ان من الشعر لحكمة» (٦٠٤) ضمن الحديث عن الحكمة في هذا العصر .

لقد ذهب بعض الباحثين الى القول بقلة شعر الحكمة في عصر صدر الاسلام وان اغلبه مما صدر عن شعراء مخضرمين وان الحكمة في شعر حسان قليلة قلتها في شعر اهل عصره لان حسانا في الجاهلية قد اتسع وقته لارسال النصائح والحكمة والنظرات التأملية والكلام في اخلاق الناس (٦٠٥).

---

(٦٠١) حماسة ابي تمام ٤/٢ ، ١١/٨ ومواضع متفرقة

(٦٠٢) العمدة ١٢١/١ .

(٦٠٣) سنن ابن ماجة ٣٩٥/٢ وانظر المعجم المفهرس لالفاظ الحديث ٤٩١/١ .

(٦٠٤) الحكمة في الشعر الاموي/ رسالة ماجستير ص٢٣ محمد حسين ابراهيم جامعة بغداد - كلية الآداب .

(٦٠٥) حسان بن ثابت محمد طاهر درويش ٣٢٩ .

وذكر اخرون أن سبب قلة شعر الحكمة في عصر صدر الاسلام هو القرآن الكريم الذي شغلت حكمته الشعراء وغير الشعراء لان القيم الروحية والخلقية اغنت الشعراء من ان يقدموا حكمهم في اشعارهم كما انهم راحوا يتأملون اياته فشغل فكرهم وجعل تأملهم في الكون والحياة والانسان تأملا موجها يسعى الى غاية معلومة وهدف سام (٦٠٦) ونرى ان هذين التعليلين غير كافيين لان الواقع الانساني والشعري يرفضان فكرة نضوب الحكمة في شعر صدر الاسلام لان طبيعة الاحداث الحاسمة التي مر بها العربي تفرض عليه ان يقف متأملا مستخلصا افكاره ونظراته للحياة مما يشهده في مجتمعه وبيئته الجديدة ، واذا كان للقرآن اثر في معاني الحكمة فهو اثر كبير لا في صرف الشعراء عنها وانما في توجيهها وجهة موافقة لما وجهت اليه افكار الناس وسلوكهم في الحياة فقد جاء الدين الاسلامي بفكر وجه حياة العربي واخذ به نحو العمل الجدي النافع لمجتمعه فلم تعد الحياة غير مجدية (ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك) (٦٠٧) كما انها ليست خالدة ولامخلدة لاحد وانما لكل اجل كتاب ، وسنة الله في خلقه تتجلى في قدرته على الخلق والممات والبعث والنشور ، والحياة الدنيا ليست فانية فناء مطلقا فلاداعي لليأس والضياع وانما هناك الاخرة بما تحمله من معاني الخلود والبقاء للخير حيث الخلود في الجنة ، والعذاب الشديد لكل من ينحرف عن جادة الخير والصواب في نار جهنم ..

وهكذا اتجهت افكار الشعراء لتصور مااستمدوه من حكمة من القرآن الكريم وتفاوت ذكرها بتفاوت قدرة الشاعر على فهم نظرة الاسلام الى الحياة فهذا حسان بن ثابت يستمد معناه في بعض شعره من الاية الكريمة (هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون) (٦٠٨) فيقول ذاكرا هجرة الرسول (ﷺ) :

وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا
عمى وهداة يهتدون بمهتد
لقد نزلت منه على اهل يثرب
ركاب هدى حلت عليهم باسعد

---

(٦٠٦) الحكمة في الشعر الاموي ٢٤ .

(٦٠٧) سورة آل عمران ١٩١/٣ .

(٦٠٨) سورة الزمر ٩/٣٩ .

نبي يرى مـــالايرى النـــاس حـولـــة

ويتلـو كتـاب اللـــه في كل مسجـــد[٦٠٩]

وعمر الانسان محدود ، واجله مقدر لذلك يرثي حسان بن ثابت الرسول (ﷺ) عليه وسلم مؤكدا الفكرة نفسها :

فلم يترك اللـــــه منـــا بعـــده ذكرا

ولم يعش بعـــــــــــده انثى ولاذكرا

ذلت رقـــــاب بني النجـــــار كلهم

وكان امرا من امر اللـــه قـــد قـــدرا[٦١٠]

وقد اكد الشعراء هذه الفكرة واكثروا من ذكرها في مراثيهم في عصر صدر الاسلام والعصر الاموي فلاداعي لتكرارها هنا انما نكتفي بالقول بان الاسلام زاد من ذكر الحكمة في ضرب المثل[٦١١] في اشعار الشعراء لكثرة ماورد منها في القرآن الكريم وللحصافة التي صار عليها العقل العربي في نظرته الى الحياة الدنيا والى تصاريف امورها كل هذا اجرى الحكمة على لسان الشاعر واحضر امامه صورة الامثال والعبر[٦١٢] وقد وجدنا بعض الشعراء يوقفون قصائد في اشعارهم على التأمل متمثلين بعض معاني القرآن الكريم ، ونضرب لهؤلاء مثلا النابغة الجعدي في قصيدته التي بدأها بقوله :

الحمـــد للـــــه لاشريـــــك لـــــه

من لم يقلهـــــا فنفســـــه ظلمـــا

---

(٦٠٩) ديوان حسان بن ثابت ٥٢/ (طبعة صادر) .

(٦١٠) نفسه ٩٣ .

(٦١١) انظر الحكمة في شعر حسان بن ثابت في الصفحات ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ وغيرها .

(٦١٢) الادب العربي : محمود مصطفى ٩٨ .

ويستمر في هذه القصيدة مثنيا على الله تعالى مستمدا من كتابه الكريم معانيه وافكاره متأملا قدرته ، وتدبيره في خلقه ويتطرق بعد هذا الى سوق الحكمة والموعظة فيذكر الناس بحال الامم البائدة التي ذكرها الله في القرآن الكريم او الذين عرف الناس سلطانهم وجبروتهم ثم اذلهم الموت والفناء :

يـــاايهـــا النـــاس هـــل ترون الى
فـــارس بـــادت وخـــدهـــا رغمـــا
امســـوا عبيـــدا يرعـــون شـــاءكم
كأنـــــا كان ملكهم حلمـــــا
او سبـــأ الحـــاضرين مـــأرب اذ
يبنـــون من دون سيلـــه العرمـــا
فـــزقـــوا في البـــلاد واغترفـــوا الـ
ـهـون وذاقـوا البـأسـاء والعـدمـا[٦١٣]

اما ابو الاسود الدؤلي فهو من الشعراء الذين عاشوا في صدر الاسلام وزمنا من العصر الاموي (توفي سنة ٦٩ هـ) عرف بكونه غزير الحكمة وافرها لكثرة تجاربه وتقيده باحكام دينه في سلوكه ولاشتغاله بالعلم والفقه[٦١٤] . وقد عزا د . فتحي الدجني كثرة الحكمة في شعره الى روحانية الاسلام التي تعمقت في نفسه فضلا عن ملازمته للامام علي والى كونه قاضيا احس بمشاكل الناس عن قرب بسبب اختلاطه بهم[٦١٥].

---

(٦١٣) شعر النابغة الجعدي ١٠٢ وانظر تحليل الابيات واعادة معانيها الى آيات من الذكر الحكيم في العصر الاسلامي / ضيف ١٠٣

(٦١٤) شعر الحكمة في العصر الاموي ٤٦ .

(٦١٥) نفسه .

اما في العصر الاموي فأننا نجد شعراء اكثروا من ذكر الحكمة والامثال في اشعارهم . ولعل لاتساع الحياة العربية وكثرة الاحداث الجسيمة فيها اثرا كبيرا في تطور المعاني الشعرية والاكثار من الحكمة فيها فهناك شعراء استمدوا حكمهم وامثالهم من القرآن الكريم وقصصه بصورة خاصة كقول هدبة بن الخشرم :

فانا قد حللنا دار بلوى
فتحطمنا المنايا او تصيب
فان يك صدر هذا اليوم ولى
فان غدا لناظره قريب
عسى الكرب الذي امسيت فيه
يكون وراءه فرج قريب (٦١٦) .

واذا تتبعنا الحكمة في العصر الاموي وجدناها حقا مثبوتة في اغراض الشعر محكمة لكثير من المعاني فتراها في اشعار الرثاء والمديح والاخوانيات كما تراها في الشعر السياسي والحماسي فغزارتها اذن جزء من غزارة معاني هذه الاغراض الشعرية وتطورها ومن ثم تابع لتطورها لكونها مفلسفة لنظر الشاعر في كل معنى يريد ايراده واقناع الاخرين به او التأثير فيه ، ولاعجب ان وجدناها ايضا في شعر شعراء النقائض من خلال محاولة الشاعر اقناع السامع بصدق مايقول في فخره بنفسه وقومه وهجاء الاخرين ، وسنختار لشعر الحكمة شاعرا من الشعراء الاسلاميين الذين وردت الحكمة في شعره مستجدة من الحياة العربية والمثل العليا والمبادئ الاسلامية ، وفرقه عن غيره يتجلى بطول قصيدته التي افرغها افراغا في موضوع صلة الرحم ومايمكن ان يستمد منه من حكمة .

(٦١٦) ديوانه ٥٤ .